

AL-ZAHIR

AL-NAFIDHAH

Princeton University Library
32101 031633

32101 071969321

2276
97873
366

[illegible]

محمود نظام



بند



al-Zāhir, Mahmūd

محمود الظاهر

al-Nāfiḍḥah

النافذة

بمجموعة قصص

سنة ١٩٦٢

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

طُبعت بمطبعة اتحاد الأدباء العراقيين

النافذة

2-25-65 1985

(RECAP)

« ... لاريب انه مجنون . انه لا يحدثني

مطلقاً . . . يتكلم وحده . . . 2276
97873

هو يتصور اشياء لم اقم بها » . 366

استيقظت فجراً . ففتح عيني ببطء . ثمة ضباب كثيف يبعث على
الأختناق كان يغطي الزجاج النافذة . وصدى قطرات خفيفة من بقايا مطر
مرعب كانت تنقر سطح الزجاج بصورة متقطعة . تسمرت عيناى فجأة على
قطرات كانت تتأرجح على قضبان النوافذ برهة ثم تهوى بصمت لعين .
لا ادري لماذا انطبعت في ذهني حالة المشنوق وهو يتأرجح في الهواء ثم يهوى
بصمت ! . بضعة قطرات منها كانت ترسم على سطح الزجاج خيوطاً مائية
متشابكة متعرجة . حولت نظري نحو الباب . امي كانت تطل على :

— هو الآن نائم . لا تحدث اي صوت .

— اتعبك كثيراً ... هه ؟ ! .

— لا . ولكن نحييه حطم اعصابي .

ادرت عيني نحو قطرات المطر المشنوقة ... انا لست مذنباً على كل

حال . هل انا السبب ؟ ! . انها هي ... هي . :

— انه لا يعرف شيئاً . اليس كذلك ؟ ! .

— عن ماذا تتكلم ؟ ! .

— لا شيء . لقد نسيت . انت ايضاً لا تعرفين .

— ماذا بك ؟ ! . أمس لم تتصرف كما يجب .

— لا شيء . . . لا شيء ، دعيني رجاء وحدي .

اوصدت الباب خلفها بعنف . انها لا تعرف شيئاً . حسناً . حتى هو اود ان لا يعرف بالمستقبل . أمس نال عطفي . شيء جذبني اليه بشدة . وجدته على صدرها عندما سمعت صراخ امي .

كانت امه ممددة على الأرض ، ثمة زرقة يشوبها سواد قائم قد احتل جانباً من وجهها .

وقفت امامها جامداً . كانت عيناها متعلقتين بسقف الغرفة . حاولت ان اكون عاطفياً إلا انني لم استطع . لا اذكر كم بقيت واقفاً هكذا . الذي اعلمه هو انني وجدت نفسي اشق جدار النسوة المضروب حولها . سمعت احداً من تخمخم : « يا له من زوج قاسي » . أخرى دقت على وتر حساس دون ان تعلم . حاولت جهد امكاني أن انصرف نحو اتمام مراسيم الدفن إلا ان الصراخ كان يعرقلني .

ارسلت برقية مستعجلة الى ابيها . لم اقل فيها شيئاً سوى : « رجاء احضر حالاً . ابتك في خطر » . لم اكن مستعداً لأرسالها لأنني اكره هذا النوع من العلاقات ، لكن الامور حتمت علي ذلك .

طلبتني وابنها . شعرت في تلك اللحظة بتدفق سموم الماضي في شراييني فقررت الأمتناع عن رؤيتها . لم اخلق اعذاراً لي . امي قالت اشياء كثيرة

للنسوة : « حزين لا يستطيع رؤيتها . يحبها كثيراً » . بعد هنيهات وجدت نفسي بجنبها . لا ادري كيف حدث ذلك ؟ ! . اظن السبب كان ابني ... ابنها ... دخل الغرفة فجأة : « بابا ... ماما ... ما ... » . لم استطع النظر اليه . ولكني حملته اليها مسرعاً مخترقاً سداً من النسوة الباقيات . كانت تحتضر . لم اكن اعني حالات الموت حتى وجدته ممتدداً بلعنته الابديه في عينيها المحتضرتين . اقتربت منها ببطء . لا أنذكر ماذا اتتاني خلال تلك اللحظة . الذي اعرفه هو انني وجدت يدي بين يديها الباردتين ، ثم شعرت بيدها تنسحب ببطء . على اثرها غاص في اذني صراخ حاد . كان هذا صراخ ابنها . بذات جهداً كبيراً لا تنزاعه من صدر امه الخامد .

بعد لحظات جاءوا بجارنا الشيخ . اردت ان اطرده إلا انني صرفت النظر عنه . الموقف كان يستدعي هذا . قالت لي الميتة « غازلني مرة » . لا ادري لماذا لم انفجر في وجهها حينذاك ؟ ! ! . اعتقد السبب كان هو شعوري من انه كان يغازل امرأة لم اعرفها بعد .

كنت آخر من القى حفنة التراب . لم ارد لها مثل هذه الميتة . ولكن .. يبدو ان الحظ سار بجانبها حتى القبر . بعضوهم كان يلف نفسه بحزن كاذب ، البعض الآخر منهم كان يرقب تصرفاتي بخبث . اردت ان اصرخ بوجوههم : « انتم لا تعرفون شيئاً . انا ... » .

لم تراودني أية فكرة حول ما اذا كان موقعي صحيحاً ام لا . كنت

افكر فقط في المسافة الزمنية التي عشتها معها . كانت تنقطع بين حين وآخر .
احياناً تطول فأنسى خلالها اني متزوج . كنت اشعر اثناء الفراق بلذة
الوجود الذاتي . لم اتمتع طويلاً بهذا الفراق اذ سمعت بانها حامل . حاولت
ان أنسى ذلك في المطالعة المستمرة إلا انني لم استطع . القلق اخذ يمزق
اعماقي . كان الطفل يبرز لي من بين السطور كاللغة . ايام . وبعدها دخلت
وطفلها الى البيت . امتنعت عن رؤيتها . لم احديثها مطلقاً إلا فيما يخص امور
البيت . احياناً اثور عليها معلناً سخطي الابدي ولا اتركها إلا عندما اسمع
نحيبها . حينذاك ارتاح واشعر بنشوة النصر المؤقت : « اني اعذبها ببطء ..
حسناً . لكن ستجد مني طرقاً أخرى لازالت افكر في اعدادها وتطبيقها . انها
لن تفلت مني » . هكذا كنت اقول في نفسي . مرة طردتها وطفلها ليلاً .
كنت مخموراً . شربت حتى تقاذفتني جدران الازقة . في الصباح وجدتها
امامي .. لم اعتذر لها . حولت نظري نحو الطفل . كان نائماً . « انه لا يشبهني » .
قلت لها يبرود :

— « انه لا يشبهني » .

لم تقل شيئاً . اذكر ان طاقتي انفها اخذتها ترتجفان وبكت .
احسست بانني قلت شيئاً كبيراً وفضيلاً . ارتحت كثيراً . ولكن مع ذلك
فالبكاء لا يساوي الذل ولا يوازيه ... أنني مهان حتى النخاع . كنت اريد
شيئاً يعادل ذلي ... متى شعرت به ؟ ! . التحديد لا يهم . اذكر بعد زواجنا

بأيام تركتها عند ايها . حاول والدها معرفة السبب . هي قالت له : « مجنون » .
أظنه لم يصدقها اذ بعث الي برسالة . بعدها استدعتها . اخذت انام في غرفة
اخرى . في اكثر الليالي كانت تسلل الى غرفتي . لم المسها ابداً . في احدى
الايام عثرت على رسالة لها معنونة الى احدى صديقاتها « لاريب انه مجنون .
انه لا يحدثني مطلقاً . يتكلم وحده . يعيش عيشة بوهيمية . انني مظلومة . هو
يتصور اشياء لم اقم بها . . . » .

لا اذكر الباقي . . . كانت الرسالة مفتوحة . لاريب انها كانت تريد
ان اطلع عليها . انها تقول : يتصور ؟ ! . كنت اود فعلاً ان يكون تصوراً
ليس إلا . لكن شيئاً . . . شيئاً كبيراً لا استطيع اقتلاعه من اعماقي يأبى
تصديق ذلك . انا لا اعرف كنه هذا الشيء الذي اعرفه هو انني اشعر خلال
دخولي في نقاش ابله ان مطرقة كبيرة تدق مسماراً في دماغي . احياناً اصاب
في حالات ارهاضية مقيته : « قد يكون خطأ الغرفة ؟ ! . ثم من يقول انه
خارج منها ؟ ! . انا اقول . انا اقول . لا تبرير » . شرفي متعلق بهذا الخيط
الذي شدني اليه رجل ، واصطفاق باب ، وملابس مبعثرة ، ووجه مضطرب
خائف . لم اسألها عنه . قالت لي بصوت مخنوق : « انها تريد تبديل ملابسها » .
حاولت ان ابرر الموقف . « انا لم اره خارجاً منها . فقط التقيت به عند
المنعطف مع صدى اصطفاق باب . حاولت مرات عديدة ان استعيد بذهني
وجه الرجل . مرة وقفت طويلاً عند المنعطف اتفرس في وجوه المارة بوقاحة

لم اعهد لها في من قبل . لم اعثر على وجه غريمي الغريب . ولكنني وجدت نفسي ممسكاً بتلابيب رجل كان يبخلق في وجهي بصلافة ... شعور داخلي هزني بعنف « لاريب انه يعرف شيئاً عنها » قلت له : « انت يا هذا حقير » . لم ادر كيف صدرت مني هذه الجملة !! . لم اكن اريد اهانتة كذلك لم افكر بها .

اخذت ارتاد دور اللهو المتبذلة . جلبت نساء الليل الى البيت . كنت اريد أن انتقم ولكن يبرود ... في احدى الليالي احتجت على ذلك . قلت لها بغتة « انهن مثلك تماماً » . لازات غير نادم على كلامي ... انها بالفعل مثلهن ... والا ما الفرق ؟! . انا رجل لا يختلف عن الآخرين كنت ابحث عن شيء يعادل الذل او يوازيه ... شيء استطيع به تمزيق الالهانة التي لحقتني بأهانة مماثلة ... هل وفقت ؟! لا اعلم ... انني كنت ارسم خطوطاً سادية . ولكن لم ارسم خطأ واحداً للموت ابدأ . قطرات الماء المشنوقة هذه تذكرني بخطئة كنت قد اعدتها لها . ولكنني وجدت نفسي غير قادر على تنفيذها . وبالتالي لم ترق لي الفكرة . كانت سريعة . وانا كنت اريد موتاً بطيئاً ... بطيئاً . إلا انها ماتت ... ماتت !! .

١٩٦١/٥/٣

لعنة صغيرة !!

« ... لن تذهب للأعور ... ثم
هي تعرفه جيداً . فهو بخيل
لا يخرج ... »

« هو وحيدها . الكل يعلم ذلك . حتى باقر الأعور يعرف هذا ...
يعرف انه يعيلها وبناتها . لقد تحدثت معه هي المرأة المحترمة الشريفة :
« يخليك الله دير بالك عليه » . لقد وعدنا بذلك واعلمنا بانه يعده كأبنة ،
وانه لا يفكر ابداً بتبغيطه لانه « شاطر . يشغل مثل الساعة » وقال لها اكثر
« اختي جوقي هذ مكانه بعيني » .

لم ترد ان تقول له : انك وضعت يدك على « عينك العوراء » ، خوفاً
من سخطه وغضبه . ثم هي تعلم تماماً انه دائماً وابدأ يستعمل عينه هذه في
القسم عندما يريد بيع بضاعة كاسدة . انها لانهتم لذلك ابدأ مادام « جوقي »
حبيبها في الشغل ويجلب لها الدراهم الثلاثة المبثلة بالدهن في آخر الليل .
لقد حاولت عدة مرات الذهاب الى « الأعور » لكي تناشده بزيادة
« جوقي » درهماً واحداً ... درهماً واحداً لا غير . الا انها كانت تنكمش
وتتصبب عرقاً وهي في منتصف الطريق : ربما يثور عليها امام الناس ، وهي
السيدة الكريمة التي كانت « الدنيا لها » . فماذا ستعمل في تلك الحالة ؟ !
لا تدري . انها لحد الآن محافظة على كرامتها . لم تذلل نفسها لأحد . لا ...
لن تذهب للأعور ... ثم هي تعرفه جيداً . فهو بخيل لا يخرج من جيبه

الدرهم إلا عندما يتأكد من انه راح في مكانه الصحيح .

كانت « الدنيا لها » يوم كان المرحوم « ابو جوقي » على قيد الحياة .
يوزع فلوسه على المحتاجين يمته ويسرة . انت نفسك يا ... يا اعور الكلب
كنت غارقاً في كرمه الى عينك المثقوبة . انت لا تستطيع نكران هذا ...
الكل يعلم هذا . اما اليوم ... هه ... جوقي المدلل ... عزيزها ، ووحيدها
صانع عندك . وهي لازالت تسمع نساء المحلة « خطية جوقي صانع عند
باقر » . الدهر غدار . في الماضي ... ايام عزها . كن يتوددن لها . اما
اليوم فلم تزرها ولا واحدة منهن . كيف يفعلن هذا وهي تبيع اللبلي
لأولادهن . هي المرأة التي كانت تنام على الحرير ايام كان المرحوم في عزه
ومجده ... ولكنه مات ... مات ولم يترك لها شيئاً ، سوى هذه « الخرابة »
التي لم تعد صالحة . خاصة في الشتاء حيث المطر يخترق سقوف « الحجر » ،
« جوقي » اضطر في احدى الليالي الى صعود السطح لترميم الثقوب والشقوق .
المطر كان يهطل بغزارة . هي لم ترد ان يفعل هذا . فهو عزيزها ومعيها .
اذا مرض ومات لا ... لاسمع الله . فانها بلاريب ستجد نفسها وبناتها
بلا خبز . قالت له اكثر من مناسبة : « عيني لا تصعد السطح » . ولكنه
يرفض . انه كوالده المرحوم تماماً . كان ايضاً يعذبها بعناده واصراره . مرة
القي بها من السرير عندما ارادت من كفالة صديق له في المركز قال لها :
« هذا من اجلنا هناك » .

حينها لم تكن تعرف شيئاً عن امثال هذا الصديق . اما الآن فهي قد اخذت تعرف وتعلم اشياء كثيرة جداً بعد ان ذاق الجوع ولا زالت تذوقه بين حين وآخر .

ان « جوقي » مثل المرحوم . رغم صغره يتكلم كثيراً عن اشياء وحوادث تقع . انه عنيد مثل المرحوم . انها تتخاف عليه من الهواء . اما هو فلا يخاف من شيء ابداً . مرة قال لها « يمه يجي يوم اضرب الاعور ... يمه يحمل علي » .

الأعور الكلب يحمل على ظهره اكياس التمن والطحين . كل هذا وهو لا يريد ان يزيده درهماً ... درهماً واحداً . يساله من انسان لا يحب احداً سوى المال . انها تعرفه من يوم كانت بنت بيت . لقد طلبها من ايها عدة مرات . الا ان والدها رفض تزويجها له ... لا تدري لماذا ؟! لقد كان ابن محلتها ولكن فقير الحال . اخوها الأكبر قال لها : باقر مايصلح للزواج . حينها لم تكن تعلم لماذا لا يصلح . هي تعلم ان كل رجل صالح للزواج . هذا كل ما تعرفه وعرفته يومذاك . لقد رفضت في حينه . كانت صغيرة ومدللة ولكن بعد مدة جاء المرحوم ، وتم كل شيء . وجدت نفسها في احدى الليالي زوجة لغريب . والآن هي ام ... وامرأة كبيرة وصاحبة ايتام من هذا الرجل الذي كان غريباً ، وخطفها من اهلها ليلاً ... الماضي راح ... عهد الشباب الذي لم تتمتع به راح .

هي الآن في مأزق ... يجب عليها ان تنسى الماضي . هي اليوم ام
« جوقي » لا بنت الأمس . عليها ان تدبر امورها ، وتفكر بـ « جوقي » على
يوم يفطس تحت اكياس التمن . ماذا ستعمل حينذاك ؟ ! تشتكي !! .
تشتكي على من ؟ ! ابنها اذا مات . ماذا تفيد الصعدة والنزلة مع الأعور في
المحاكم . ويمكن تكون النتيجة في النهاية في صالحه . اذن يجب ان تدبر
امورها . اذا تعطل « جوقي » عن الشغل يوماً فانها بالتأكيد ستجد نفسها مادة
يدها باستحياء لـ « قربون » الخباز . لان « جدر » اللبلي لا يكفي لسد
الرمق ... فكيف اذا فطس ابنها العزيز تحت الاكياس ومات ؟ ! . انها
من يوم مامات المرحوم وهي تفكر بحل مشكلة المعيشة ولكن لم تجد للآن
حلاً . كان يمكن ان تعتمد على اهلها لو كانت حالتهم على ما كانت عليه قبلاً
« جوقي » يقول لها دائماً « انا رجل ... ماريد مساعدة من احد » .

انه حقاً لكذلك ... اصبح يفكر بتفكيرهم منذ تحمل عبء معيشتهم .
ولكن أليس من حقها التفكير في امور معيشتهم ؟ ! . انها تعلم ان نوعاً من
التشاؤم قد رافقها منذ وفاة المرحوم . وهذا من حقها . انه لم يترك لهم مالا
قالت له الف مرة « يا رجال اقتصد للايام السود » ولكن لم يفعل . كان
دائماً يضحك منها : « ام جوقي الدنيا طويلة ... لا تهتمي مادام انا حي »
ولكن مات ... مات وترك مصائب الدنيا والبيت على رأسها تفكر في كل
ساعة ودقيقة بالخبز لاغير ... الدراهم الثلاثة لا تكفي لسد الرmq ...

والأعور لا يريد ان يزيد ولدها قال له قبل ايام « هذا هو . اذا ما يعجبك اطلع » .

هي تعلم لماذا ؟! تعرف كل شيء . هي فقط تحس في اعماقها بالجرح . انه ينتقم لنفسه ، ولكن بصورة خفية لثيمة ، انه لازال يتذكر رفض والدها للزواج منها . فهي كلما تذهب اليه ينظر إليها بعينه الوحيدة باستهزاء صامت . انه يشمت بها هذا الخبيث « الأم تبيع اللبلي . والابن صانع عندي » .

هي متأكدة انه يقول ذلك في نفسه ، ولكن ما عساها فاعلة ؟! الامر بيده . . . لاشيء ؟! لقد اهين من قبل . ويريد الآن رد الأهانة . ويجب عليها ان تسكت وتعتبر من اجل ان يدوم الخبز . ولكن عايتها ان تفهمه اليوم حول زيادة جوقي . يجب ان تتحدث اليه عن الدرهم الجديد . يجب حتى لو تلقت منه اهانة صريجه . ستذهب الى هذا الجلف وتتوسل اليه . ولكن عندما يرفض ذلك . ستقول له كل شيء ستكشف له اعماقه العفنة وحقارته الدائمة . ستقول له كل شيء . نعم ستفعل ذلك اذا رفض ، اذا رفض .

العمق

«... مرة ضربه والده عندما حاول
ان يتلصص عليهما من ثقب
الباب...»

الخيوط الرمادية بدأت تسود ... قصص الليل مخيفة جداً ... امه
 قالت له : الشياطين تخرج ايلاك لتجارب بعضها البعض . سرت رجفة خوف
 في جسمه الصغير . وغاصت قدماء في الرمال : والده اكد لابناء القرية بانه
 حارب الجن في نومه ويقظته . قرونهم معقوفة وحادة . الشيخ لم يكذب في
 هذه المرة لقد شاهد والده مرة يدور في الغرفة ويصرخ : وعصا طويلة
 تضرب الجن بعنف وحقه . لا . انه لم يكذب في هذه المرة . هذا صحيح .
 لا ريب انه سيصادفهم في هذه الصحراء الموحشة . فاذا سيفعل ؟ ! اين
 يهرب ؟ ! لا . لا يمكن ان يقتله الجن . ابره حاربهم وليس هو . اذهبوا
 اليه . انه هناك في القرية الآن . صدقوه . انه ولد صغير لم يفعل شيئاً مضراً .
 لم يحاربهم . حتى ولم يسبهم ولا مرة . كذلك لم يبيل على عتبة باب السيد
 « درويش » . ولم يرم « الطنطل » بالحجارة . لا ... انه لم يفعل شيئاً مثل
 هذا . اترا به فعلوا ذلك . خاصة ابن المختار مرات عديدة رمى « الطنطل »
 الحجارة . وبال على عتبة باب السيد . ان اترا به يستحقون الموت . اذهبوا
 اليهم . اما هو فصديق مخلص و ...
 — يا ولد ... يا ولد .

التفت الى الوراء مذعوراً . فارس متجه اليه . لا بد وانه رسول
والده يجب عليه ان يهرب .

وارتفعت قدمه . ودفع ذيل « دسداشته » الى داخل فمه تاهباً
للهرب . الا ان الرجل ناداه برقة عندما اقترب منه :

— لا تخاف . انا صديج . وين رايح ؟ !

رفع الصبي عينيه المذعورتين متفحصاً الرجل الا ان عتمة الليل
حالت دون ذلك .

— انا رايح للبصرة .

قالها بصوت مرتجف

— بصره !! . انت مخبول . انت ... زين تعال اركب .

لقد زال الخوف من قلبه ... الخوف من الجن . انه لم يعد
يخافهم ابداً . لقد كذب عليهم قبل لحظات ... هو دائماً يرمي
الحجارة على « الطنظل » . ويبول حتى على عتبة الباب
« ام ذياب » و ...

— انت منين .

— من المجر .

— عندك ابو .

لكم كان مشتاقاً لهذه الكلمة من قبل ... ماتت على شفقي ايه

منذ وفاة المرحوم امه ... ليت ه ذهب معها ... اما كان الأجدر بها ان تبقى من اجله او ... او على الاقل ان تأخذه معها ... والده قال : « الله اخذها لأنك ولد منحوس » ... اهالي القرية كلهم يقولون له « منحوس » ... انه ما يزال يتذكر « ام ذياب » جارتهم عندما انكسر تنورها فجأة حال وقوفه بجانبها . نفرت منه وقالت : منحوس . هل هذا صحيح ؟ ! ... انه لم يؤذ احداً منهم ... لماذا اذن يكرهونه بهذا الشكل ؟ ! . الشيخ السبب قال له : منحوس . فانتشرت في القرية اللعنة ... والد بلا وفاء . تزوج بنت المختار بعد وفاة امه بثلاثة اشهر . انهم لا يعرفون والده جيداً ... هو يعرفه ... على حقيقته ... منافق كبير ... امه قالت له مرة : « ابوك يريد يعيش » . راحت امه ... ماتت .

وجاءت فطومة ... هذه المرأة يكرهها كثيراً . اخذت مكان امه . انها لا تستحقه مرة ضربه والده عندما حاول ان يتلصص عليهما من ثقب الباب . قال له والده « انت مخلوق للعصايا ابن الزنا » ... بكى في تلك الليلة كثيراً . كانت العصا تدور اينما يدور : خاطر الله ... خاطر امي ... توبة ... ما اعملها بعد « زوجته » فطومة « انقذته من عصاه قال لها : لا تتدخل . بالأمس قلت انه رماك بالحجارة وضرب ابنك و ... كان يظن بانها تحبه ...

— انت منين ؟ ! .

ورفع الصبي عينيه نحو الرجل . واستقرتا برهة على شاريه السوداءين
ثم تعلقتا بعينيه الواسعتين . وعلى ضوء القمر الذي كان يظهر بين حين وآخر
من خلال ثغرات الغيوم السوداء الكثيفة . رأى وجه الرجل بوضوح : « انه
لا يختلف عن رجال قريته ابداً » .

وزفر الصبي زفرة طويلة . وتنهَّد بعمق . ورفع يديه من على السرج
وضمهما الى صدره : لكم هو مشتاق لاحتضان هذا الرجل الطيب مثلما
كان يحتضن امه الحنون . واحس بدموعه تتجه الى فمه وذاق ملوحتها .

هذا الرجل لا يعرف عنه شيئاً ... لا يعرف مثلاً انه ارتكب جريمة
في هذا اليوم ... حسناً ليقص له ما حدث ... ولكن مهلاً . ربما يعاقبه على
فعلته ... ربما يتركه هنا ... اذن ماذا سيقول له ، اذا سأله عن حاله ؟ !
لا يدري ربما يقول له ما حدث له : « دخلت البيت وانا اشعر بجوع شديد .
طلبت من امرأة ابي اعطائي العشاء فرفضت وعنفني وبعدها هجمت علي
فجأة واخذت تضربني . طاش صوابي واخذت يداي تضربان بقوة بطنها
المنتفخة . اخذت تصرخ : يمه ابني مات . ارتعدت اوصالي وبعدها وجدت
نفسي خارج القرية » ... هذا بديع ولكن لما لا يحذف كلمة الضرب : انه
لم يضربها . هي وقعت على الارض ثم صرخت : يمه ابني مات . هذا احسن
لكيما لا يلومه الرجل هذا صحيح .

وتعلقت عيناه بعيني الرجل . كأنه يرجوه ان لا يلومه على فعلته .

وتحركت عينا الرجل . وامتد بصره نحو الصحراء وهو يغني بألم منسجماً
مع وقع حوافر الحصان . ولكن سرعان ما تقاطع الغناء ونظر الى الصبي :
— اسمك .

قلق الصبي كثيراً اذ شعر ان الرجل سيفتح معه موضوعاً ما . وهو
الآن في حالة لا تساعد على حديثه في اي موضوع . ولكن وجد نفسه بعد
هنيهة يجيب الرجل بصوت رقيق خفيض كالمجرم النادم .

— حمزة

— عندك غرايب بالبصرة .

— لا . ما عندي .

— هه !! ما ...

— انا شارد من اهلي .

— شارد !! . گول غيرها .

— ليش ابني ؟ ليش .

تمددت فترة صمت فيما بينهما كان الصبي يفكر بأمر الحادثة هل
يقول له الحقيقة . ام لا ؟ ! . اما الرجل فقد اخرج كيس التبغ المطرز
واخذ يلف سيجارته باعتناء . وتصاعدت حلقات من الدخان : « ربما هذا
الصبي بنفس مشكلته ايام كان صغيراً مثله . . . ضرب ابن « المحفوظ » .
بـ « المحجال » من بعيد . نرف دماً كثيراً . بعدها بقليل جاءت زلم الشيخ .

لم يكن هناك . هرب بليل . سمع بعدها ان اباه ضرب بالسوط حتى
الاغماء ... ربما مر هذا الصبي بنفس المشكلة :

— يمكن ضارب ابن الشيخ

— لا عمي . الشيخ صديج ابوي . روح بروح .

وهو ... شيخ ! . معلم القرية دائماً يهاجمه هذا ظالم محتكر ؟ !
سأله عن كلمة محتكر في يوم ما . قاله له : يعني يأكل تعب غيره . يستغله ..
لم يبق المعلم طويلاً في القرية . فجأة غاب عنهم . مرة هاجم اباه ايضاً : هذا
جاسوس على الفلاحين . لما سمع والده قال عنه : انا له .

كانت وقع حوافر الحصان تمتزج مع نباح كلاب متواصل لجوج لما
ينقطع بعد . ويبدو ان الحصان بدأ يتذمر . فلقد رفع ذيله بعصية . واتصبت
اذناه المتأكلتان . وهمهم شاكياً ، ثم صهل بضغف ، وهز رأسه حانقاً .
وبعدها مد عنقه بصمت عندما امتدت على عنقه يد مستطيلة ضخمة يعرفها
هو جيداً . اخذت تداعبه بحنو بالغ . ثم ارتفعت اليد وطبطبت على كتف
الصبي : يجب عليه ان لا يثير ذكريات هذا الغلام . لترك السؤال عن سبب
هروبه . اذ يبدو ان الصبي لا يريد ان يخبره بالحقيقة لسبب ما . قد يكون
لازال خائفاً منه . او ان شيئاً آخر يمنع هذا الصبي من التكلم معه او
التحدث اليه عن سبب هروبه . لترك الصبي . هذا احسن . ثم ... لم هذا
الفضول منه ؟ ! . هذا حق . السكوت قد يجلب الطمأنينة له . اذا يبدو انه

لازال مذعوراً من شيء ما فعله في قريته . ولكن ما هو هذا الشيء ؟ !. اللعنة
مرة اخرى ايضاً . يا اخي انت مالك وهـذا الضبي . رأيت في الصحراء
واركبته معك خوفاً عليه لصغره . كأني انسان آخر . اتركه ومصيبته هذا حق
السكوت قد يجلب الظمأينة له . هذا حق ولكن ...
— انت تحب الشيوخ .

لم يكن يتوقع ان يجابه بهذا السؤال من الصبي . كان يعتقد بانه يجبذ
الصمت . اما ان يسأله هو . . . الصبي . . . عن الشيوخ فهذا أمر لايجبده .
هو رجل الربع قرن يحمل ذكريات كثيرة عنها . منها ندبة سوداء على جبينه
لا زالت تصرخ في وجه الظالمين . - انه لا يزال يتذكر الحادثة :
« - محفوظ زودني « طغار » حنطة . السنة جفاف . الزرع مات .
— اسكت ! . ملعون السلفه . بأرضي وتريد تاكلي .
— محفوظ ما ...

فكانت هذه الندبة السوداء اللعينة . انه ليس أسفاً على شيء بقدر
اسفه على عدم تمكنه من افراغ رصاصة في رأسه ... هـ « انت تحب
الشيوخ » .

« لا احد يحبهم يا بني سوى الشيطان ... وحتى هذا سيهرب عنهم
في يوم ما . لا بد وانك تعرف الشيطان يا بني ؟ !!
وتمخط بقوة ثم مسح انفه بكمه . بقي خيط رفيع من المخاط عالقاً

بشاربه الكثيف مكوناً زاوية ما بين الأنف والفم . وسعل . ثم لف سيجارة .
وانحنى على الصبي قائلاً :

— أنا ما احب الشيوخ . وانت

— اكرههم موت :

« مرة ... كان مع ابيه . ايام الحصاد : حيث الحنطة اكوام ...
اكوام امام « المحفوظ » كانت عيون الفلاحين عالقاً بها تصرخ بالثورة .
سمع احدهم يتمتم : سار لي عشر سنين وانا مديون بعدني ... يمى
تخلص ! ...؟ يمى تتخلص !؟ .

— هذا يا جاحد بالنعمة . هه ... هه .

لم يجب ولا واحد من الفلاحين ... كلهم صمتوا . وتقدمت زلم
الشيخ نحوهم . وكذلك ارتفع كرباج الشيخ ومد والده يده ، المعروفة
اليهم :

— منو ... التكلم منكم - ها - منو .

هكذا تكلم والده نيابة عن الشيخ . وسمع دمدمة التذمر من الفلاحين
نحو والده : « ها ... ابو شيبات .. عرفناك زين وترك كرباج الشيخ
وخيزرانات عبيده اكثر من علامة على وجوه الفلاحين . وارتجف هو من
شدة الخوف وتعلق بحزام احدهم عندما رأى ايديهم تمتد الى المناجل
حائقة . ولكنها ارتدت عندما صوبت افواه البنادق الانكليزية نحو صدورهم ..

انه لازال يتذكر هذه الحادثة بوضوح اذ انها كانت الفاصلة بين القرية ووالده . لم يعد والده محترماً من قبلهم ولو لا الخوف لقتلوه . هكذا سمع جارهم « ابو جاسب » يقول لزوجته . نعم ... انه يكرههم جداً ... وانه يتذكر جيداً كيف حرص اولاد القرية بمقاطعة ابن المحفوظ المجدور الوجه . قاله له والده في حينه « تريد تقطع خبزتي هذا لازم المعلم علمكم . انا راح اطيره من هنا . لازم ينقله الشيخ انا اعرف هذا السبب ... انا ... انا ... أ ... آ ... آ . » .

وقع رأس الصبي على صدره . بدأ يغط في نوم عميق « تعبان » هكذا قال الرجل الطيب لنفسه عندما لفه بعباءته الصوف .



كانت الشمس قد بدأت ترتفع عن الافق اللازوردي . واخذت سنابل القمح الذهبية تعكس اشعة الشمس الدافئة على وجه الصبي الحزين فايقلته من نومه . ووضع يده على جبهته حاجباً عينيه عن الشمس . واخذ ينظر بامعان نحو الأرض الخضراء الممتدة حتى الافق الذي بداله قمحي اللون . — هاي ... « الكرامة » .

قال الرجل للصبي بعد امعان طويل في وجهه : انه ولد يافع يستطيع ان يدير امره لوحده . قال هذا في نفسه .

واخذت وقع حوافر الحصان تدك خشب الجسر المنخور متجهاً الى
البصرة . وابتعد ظله عن الانظار وبدأ يصغر . . . فيصغر الى ان اصبحت نقطة
معلقة في الافق الممتد نحو البصرة . . . المدينة الكبيرة .

١٩٥٥/٤/٣

التمرد

« ... حتى هي مرت بهذا

النور . انسميت كيف

كنت تتسلل ليلاً ... »

قالوا - عكال الزاير مال

(يا بوي تراني لا حجييت وياه ولا اعرفه منين بس عيونني گبان بعيونه .
وشفائي رجفن لما گرب يمي وخفك گليي لما مشي حذاي . هذا الصدج يا بوي ..
والله ما اجذبت وحاشي التگي وياه ونخلي ايد بايد . بس لبعيد لبعيد .
تراني يا بوي انا احب هواي وگليي يرف عليه) .

هكذا ستقول لايها عندما يقتحم البيت ولكن أستطيع حقا ان تقول
هذا أمامه ؟ ! لا لا تستطيع انها على يقين من ذلك حتى او فعلت فان
اباها لم يصدقها ... ايصديقها ؟ ! .

يا انت يا حياتها صدقها انها والله بريئة فهي لم تكلمه ابدا فقط قابها
خفق لما رآته مقبلا من بعيد وفي عينيه لهيب لا تطيقه الا ابتك . فلا تصدق
حكاي الناس حولها . انهم يكذبون انسيت حادثة حسنة صديقتها وكيف
قتلها ابوها على لاشيء . انسيت ال ... انه لن يصدق ايضا لتشرح لامها علما
تساعدنا في محتها وتنقذنا من خنجر والدها البراق :

— يمه گولي لا بوي ...

— شكول ؟ ! ... انا اخاف

حتى انت يامها !!! .

لقد وضعت كل امالها فيك اعتمدت انك ستكونين عوناً لها ولكن ها
انت تتهمينها أيضاً . كيف اذن سيكون موقف زوجك ؟ ! لا ريب انه

سيكون فظيماً ، رهيباً ، ميتاً . انها ستموت على لا شيء ، هذا ظلم يا اهلها ...
يا عشيرتها . انها والله والحسين لم تفعل شيئاً يستحق القتل فقط قلبها رف
وصدرها ارتفع عندما شاهدت هذا الرجل ... قلبها ياناس . لا هي .
حاسبوه انتزعوه منها . لا تريده مادام الموت يكمن في كل خفقة
من خفقاته انكم اذا فعلتم يا عشيرتها ذلك فأنها سوف لن تريه وجهها
عندما تذهب لجب الماء . ولكن كيف ؟ عيناه عيناها قلبها . لا لن تستطيع
ان تدعكم تفعلون ذلك انها ...

ورفعت رأسها ببطء من بين ساقها المضمومتين الى صدرها الثائر .
وتعلقت عينها الذابلتين بعيني امها الحائرتين برهة وجيزة ثم تحولتا نحو
دجاجة كانت تحرث الارض بحثاً عن حبات من شعير انتهت امها من
طحنه قبل لحظات . وامتدت ساقها اليسرى بعنف لا ارادى اما الاخرى فقد
ظلت كوسادة تنتظر انتشار الشعر الليلي عليها . وتنهد الصدر بألم وارتفع
النهدان ...

— ما يصدگون .

هكذا قالت في نفسها عندما اطالت النظر الى امها من بين اصابعها
المتشابكة على وجهها القمحي اللون .
وعادت الى الوسادة بعد ان سحبت الساق الممتدة . واحتضنت
الساقين بقوة وشدتهما الى الصدر بخوف .

لا يصدقون ايضاً كلهم صمموا على قتلها هي تعرفهم جيداً : الدم .
الهلاهل . العرض . العار . اذن - يجب . يجب ان تجد حلاً ... آه ليت
هذا الشاب يأتي اليها الآن ويحملها ويطير بها بعيداً من هنا . ليتة على
الاقل يكون موجوداً اثناء تمزيق اللحم ... لحمها . ليتة ... لماذا لا نخبره ؟
لا تذهب اليه . انها في خطر . ولكن ماذا ستقول له لا تدري الآن . قد يفهم
هو وضعها فلا يسألها وقد ... لا . لا يمكن ان نظراته العميقة تدل على حبه
لها . هذا شيء لا يمكن نكرانه واذا رفض فأنها ستتوسل اليه وتقول له : -
ان اباها الآن بـ (المضيف) وان القهوة ستدور كالعادة على الجالسين وعندما
يأتي دوره سيقاب الفنجان عمداً . وحينذاك سيعرف والدها كل شيء عن
لا شيء . يجب اذن ان تهرب . ان تعيش . ان .. ان تحب .

ارتفع الرأس فجأة وامتد الجسد بعد تكور طويل . ووقفت هيلة وفي
عينها الباكيتين تصميم جديد لا رجعة فيه ابداً .
— يمه انا راичه وياه .

— وي . خاييه هيله كولي . .

وتوارى ظلها . فغاص الصراخ المشنوق في عيني الام الحزينة في
اعماقها : -

هيله ابنتها الوحيدة هربت يا للعار هربت وهي بريئة انها تعلم بذلك
ولكن ماذا يبدها ؟ لا شيء مولاهما ... سيدها الزاير سيأتي بعد قليل ومعه
الموت لابنتها ... لابنته ايضاً . فلماذا يا سيدها على اي شيء ؟ . والله هيله

شريفة . لم تزني كما يقول الناس . حتى هي مرت بهذا الدور . انسيت كيف كنت تسلك ليلا لتنظر اليها من خلال الخوص . كيف اذن تحاسب ابتك على ...

— ونج ... ونيها .

تبخر كل الكلام الذي كانت تريد ان تقوله له . ونسيت كل شيء ماعدا الغضب المنتصب امامها . فانكمشت على نفسها . وتكورت في احدى زوايا الكوخ وهي ترتعش .

انه الزاير لم تكن تتصور ان الغضب يغير الوجوه هكذا . حتى السكين كانت ترتعد بيد الزاير الضخمة ومرت لحظات صمت ميمية . كانت السكين في خلالها تشق الهواء بنف وتحرك الزاير متجها الى الزاوية . فأرتعدت المرأة ودقت صدرها بقوة وصرخت باعلى صوتها :

— شردت ... شردت

— ها . هاولج عاري . انا اخوك يا زناد .

ومات الانسان في عينيه الجاحظتين وارتفعت السكين نحو السماء مقسمة لغسل العار :

انه سيصرخ بوجه الشيطان الى الابد .

وسيعلق عقاله في وسط السلف .

وسيقتحم كل كوخ وماوى بحثا عنها . انه لن يعود الى عشيرته إلا وهو مرفوع الرأس ... لن يعود .

الصراخ المخنوق

« ... والده يريد منه أن يساعده
في الشغل ... ويريد منه كذلك ... »

— افتح ايدك .

— استاذ . انا ...

— افتح .

بعضهم اخذ ينفخ يديه استعداداً للعصا . سيصل اليه بعد ان يجتاز هذا الصف الطويل من زملائه . هذا الوجه الكالح الاخضر احياناً يقابله في كل صباح بعبوسه المخيف ، ولهفته الآمرة ، وعصاه المربعة . اغلب الاحيان يمشي على مقدمة حذائه . دون اي صوت ، ليفاجيء احدهم وهو يقطع جزء من فطوره المكون من الخبز والتمر .

انه قاس . هو قال لايه ذلك . ولكنه لا يريد ان يفهم ذلك . فقط :

« تعال ساعدني بالشغل » .

مرة ترك والده المسكين مضطراً لتأدية الامتحان . قال له غاضباً « تريد تموت من الجوع . اليوم صينية البقلاوة ما بتاعت . انت السبب . تدري انا ما اكدر ادور بالدروب . انا رجال شايب . بالكاد اشتغل حتى أعيشكم » .

لقد سأم من هذه الامور المعقدة تماماً . في البيت حيث صينية البقلاوة . في المدرسة حيث وجه هذا المعلم القاسي القلب : « راح ابطال من المدرسة » . ولكن وجد معارضة شديدة من قبل والديه : « انت مستقبلنا . انت معيلنا يمه » .

ابوه شد على قامته القوسيه وقفز
— لا ابني . لا ... لانسويها .

والده يريد منه ان يساعده في الشغل ويريد منه كذلك ان يستمر في
الدراسة . انه لحد الآن لم يستطع ان يفهم هذا المنطق .

مرات عديدة نبه والده على عدم استطاعته تحضير واجباته المدرسية
إلا ان اياه يصرخ في وجهه : « ادرس في الليل » .

في الليل يذهب الى البيت متعب الجسم منهوك القوى ، وصينية
البقلاوة تتأرجح على رأسه . وعندما يدخل يشاهد والده يعجن طحين
البقلاوة ، يساعده في ذلك اخوته الصغار . اما امه فلن يجدها الا في المطبخ
حيث جدر الباقلاء الكبير .

« امه ايضاً تشتغل !! »

انه ليتألم كثيراً عندما لا يجدها في البيت بعد انتهاء الدوام . يجد فقط
شقيقته الكبرى تروح وتجيء في ساحة الدار . وحياناً يشاهدها وهي تختلس
النظر الى المرأة المثلومة المثبته في الحائط الطيني ، تنظر الى صدرها . ان
شيئاً في صدر اخته اخذ يتكور . امه قالت لايه : البنت كبرت . دير بالك .
انه لم يفهم لماذا « دير بالك » . حتى هو كبير . هل في هذا ما يستحق ان
يدير والده باله عليه ايضاً . ان ...

— افتح .

— استاذ . البارحة ابوي اجا من اوربا .

— افتح .

والد زميله هذا ثري كبير . هو قال لهم : البارحة سقت سيارتنا « . لا يدري لماذا يكرهه ؟ ! . انه يأتي مهنداً . اما هو فبنعال نصف عمر يشاركه فيه اخوه الصغير احياناً . هذه ليست حياة . في اغلب الاحيان تدفعه قوة ما . لا يعرف مصدرها في دفع زميله هذا في الطين . ولكنه يرتعد ويتراجع عندما يتذكر والد زميله . انه ثري كبير ، ومتفد في المدينة . ربما يسجن والده ويهدم بيتهم ايضاً ، ربما ...

— افتح ايديك .

— استاذ انا ...

— افتح .

مسكين . البارحة كاد ان يموت والد زميله هذا . انه مريض منذ زمن طويل . امس تبرع رجال المحلة بشراء الادوية لآبيه . قال له : اذا مات ابي سأقطع عن المدرسة واشتغل « . هو ايضاً يشتغل ولكنه لازال يصطدم كل صباح بوجه معلمه والعصا تهتز بيده . التلاميذ يطلقون عليها « الكافرة » ابوه ايضاً عنده عصا طويلة . ولكنه لا يستعملها الا لتأديب شقيقته الكبرى عندما يشاهدها تنظر من الشباك . ابوه لا يريد ذلك : « انا رجال شريف ... ما اريد تطلع علي كلمة ... نالي عمري » .

اما هو فلم يضربه لحد الآن فقط يصرخ في وجهه :

— ادرس . ادرس يا ابني .

— الدنيا نص الليل . تعبان .

هكذا يجد نفسه في الليل . منهك . لا يستطيع حتى تحريك يده . ان اباه يعلم ذلك جيداً . ان الصينية كبيرة وثقيلة هو يعلم ذلك جيداً . ولكنه لا يسمع سوى : « ادرس ... ادرس يا ابني » . هذا الرجل والده . ولكن احياناً يثير غضبه ...

— افتح ايدك

— استاذ . انا

— افتح .

« الكافرة » اخذت تقرب منه ... هو لحد الآن لم يجد له عذراً ... ولكن ما الفائدة من هذا كله ... المعلم لا يسمح لأي تلميذ ان يبدي عذراً . ان « افتح » هذه تهز اذنه حتى في احلامه ... ها قد وصل اليه ... خطوة وينتهي كل شيء ... او يبدأ كل شيء ...

« الكافرة » بدأت تكبر امام عينيه الحائرتين ... عيون الزملاء تثبتت في وجهه ... هو في آخر الصف . لا يدري لماذا اخذ يشعر ببرودة تسري في ظهره . قد يكون السبب هو التصاقه بالحائط . لا يدري !؟ يبدو ان وجهه قد تغير لونه ... عيونهم قالت له ذلك . هو يعتقد انه لم يحس

بالخوف بقدر ما احسن بالحنجل من هذه العيون . ان بعضهم لم تمسه اليوم
« الكافرة » ، لذا يريدون ان يسخروا منه . بعضهم من اولاد الاغنياء .
لا ريب ان ظروفهم تختلف عن ظروفه . اما هو فيعرفها جيداً ويعيشها كل
يوم وساعة ودقيقة ... الأيام معهم قال ذلك معلم العربي . سيقول لهم في
هذه المرة كل شيء . انهم الآن يضحكون لان « الكافرة » ستسلط على يد
« ابو البقلاوة » . كما يحلو لهم ان يقولوا له ذلك . لا يهم . هو سيقول
للمعلم عن السبب حتى عندما ينتهي من ...

— افتح

— استاذ ...

— ها . حقك . شفتك بمحلتنا .

اللون

« ... لماذا يعاملونهم هكذا ؟ ! »

السنا مثلهم ؟ ! ونحن بشر ...

بشر وارض يا ناس ... »

— اذن هذه هي قرينه ؟!

وتقدم ببطء .

ماذا سيقول لايه ؟! . لاشيء !! . انه ليس على استعداد لتحمل مثل هذه الاخبار ايضاً . امه قالت عنها : هذي هجم بيوت . ولكن مع ذلك هو ملزم باخبار ابيه مهما كلف الامر سواء الآن او غداً . اذا لم يقل له الحقيقة فانه بلاريب سيجد سؤالاً كبيراً ينتظره : اليوم راجع من وقت ؟! . ماذا سيقول له : مريض ... لا يمكن . اذن عليه بالحقيقة . اما كيف يبدأ فهذا الذي لا يعلمه بعد ... قد يكون من الاضرب ان يقول له : ابى لانيأس . سوف ارجع في يوم ما كما وازك سترجع معي .. لا . لا يستطيع النطق بهذا . اللعنة . انه لم يعد يقدر على حصر الاشياء . كل الاشياء التي اخذت تجري حوله اصبحت سؤالاً مبهماً : لماذا ؟! . لماذا يعاملونهم هكذا ؟! . السنا مثلهم ؟! . نحن بشر ... بشر وارض يا ناس . مرة قال له والده : « نحن لسنا في الحساب » لم يصدقه . اعتبرها من لحظات اليأس القاتل . انه في الحساب يا والده . والا لما اتاك مبكراً على غير عادته . وها هو ذا يفكر بتخفيف الخبر كي لا تزداد احزانك الكبيرة . انه متألم من اجلك اذ ليس باستطاعته منذ اليوم شراء الخبز من « زاير حسون » ... لقد قال لهم انه لم يفعل شيئاً مخالفاً للقانون . فقط طالب بحقوقه : اليس من حقي ان افعل هذا ؟؟ .

— لا . بعد لا تجي للشغل .

اية لعنة سوداء تلك التي خيمت على هؤلاء !؟ . لا يدري .

— انا . مثلك .

لم يكن يدري انه داخل علبه الكارتون العفنة . وانه صاحب هذا الصوت الذي انطلق دون ان يدري كيف !! .

واحس برعشة تسري في جسده المنهوك ، وبضيق مفاجيء عندما تعلق عيناه بعيني ابيه الضيقتين . مضت فترة صمت كان في خلالها يفكر بما يدور في ذهن والده الطيب . واخذ يداعب مجموعة مفاتيح بعصية ظاهرة . وشعر بخدر ثقيل يسري في قدميه المستطيلتين . واراد الجلوس عندما سمع والده يقول له بصوت عادي لارجفة فيه :

— لا تدير بال يا ابني .

— « لا تدير بال » . قالها في نفسه :

« لم اكن اتوقع انك ستكون بمثل هذا الهدوء يا ابي . كنت اعتقد بانك ستصرخ محتجاً على هذا العمل ، كنت اعتقد بانك ستصيح باعلى صوتك : يا ناس حتى ابني ... كنت اعتقد ... لا شيء يا ابي ... انا لا استطيع ان افهمك جيداً . يبدو اني لازلت على غبائي . انت احسن مني بكثير » .
وخرج مسرعاً وعلى شفتيه تمددت جملة « لا تدير بال » .



كان كلبه الأسود ماداً ساقيه الى الامام ، ورأسه بينهما . الا انه لما
راه تمطى بكسل ومد لسانه ثم وقف . واستقامت اذناه ، وكانت احدهما
مبتورة . واخذ يدور حوله وهو يهمهم ، ثم تعاق به بشغف مستنداً على
احدى قائميه الخلفيتين لان الأخرى قد استقرت بهارصاصة صياد الكلاب .
واحتضنه بحنان بالغ وكأنه يقول له ايضاً : لا تدبر بال .

ترك الكلب برفق بعد ان تحسس ساقه العرجاء ، وسار في زقاق ضيق
موحل . التقى بعدة اصدقاء . لم يحادثهم . ولكنه وقف برهة يتطلع الى
ترنح « عباس ابو الثاج » أوصياحه المخمور على ام عيون الزرق التي قتلتها :
« هذا الرجل يسكر دائماً . يبيع الثاج صيفاً . اما في الشتاء فيبقى بلا
عمل . فقط يسكر . هو لم يذق « العرق » ابداً . قالوا له : انه ينسبك
همومك واحزانك . اذا شربت اصبحت ملكاً ، هكذا قالوا له . انه لا يريد
ان يكون ملكاً . يريد ان يعيش فقط . . اليس من حقه هذا ؟ لا . يدري .
هو في نظر « البعض » لا يساوي شيئاً . تلك هي الحقيقة . لا يمكن لأي
انسان اقناعه بغير هذا . كيف يقنعه ؟ . قبل ايام جاء ابوه الى البيت مبكراً
وعلى شفثيه الغليظتين اثار ابتسامة مغتصبة وقال :

— انا بعد ما اشتغل .

عرف ان اباه من ضمن الآخرين . لم يعلق على الحدث بشيء اذ كان
يشتغل حينذاك . وهو وحده كان باستطاعته ان يعيل العائلة . اما اليوم

فقد أصبح كوالده .

امتدت الايدي الخشنة الى اثاث الكوخ ، وبدأت الام بتحسس المصيبة اكثر فاكثر . وجاء يوم خلا الكوخ الا من صندوق مزين بالرسوم والنقوش النحاسية ، كانت الام تعتني به كل يوم وتحوله من مكان الى آخر عندما تهطل الامطار وتغرق القرية . ولكن ها هي تودع صندوقها العزيز بدموع ساخنة صامته خوفاً من الرجلين المنحنيين عليه .

لم اكن ارغب ببيع الصندوق . الا ان والدي قال : تريد نكدي . وسكت ، وحملناه الى سوق الجمعة حيث تسلمه « دلال » اصلع الرأس ، ماكر النظرات ، ثعلبي الوجه . اخذ يصرخ بخبث .

— چم اگول (١) ... چم اگول . صندوق عرس جديد . چم اگول . هريج . دينار . دينار . دينارين . دينارين هريج ... شايفه الخير .

اشترته امرأة معمرة ، حافية ، شبيهة بامي . رجعنا الى القرية ، والاسى قد حفر في وجهينا الف لعنة ولعنة ، واسئلة عميقة اخذت تفور وتفور معلنة تحديها للارض .

ونظرت اليه وكان مطرقاً الى الارض كمن يبحث عن شيء فقدته قبل لحظات !

(١) كم اقول .

— بعد ما عندنا شيء .

— عندنا الصبر .

— ادري . لكن ...

— سد الحكاية بالله .

واغلقت الموضوع . وسرنا في صمت قلق .



بعد ايام زارنا بعض الزملاء وامدونا بالمساعدات . مرة زارتنا خالتي
ومعها صرة نقود صغيرة . رفضتها امي . إلا ان خالتي رمتها في حضنها
قائلة :

— اشترى حليب للطفل .

لم يعد في الثديين حليب يا خالة ... حتى ولا قطرة . الثديان اللذان
كانا منتصبين بشموخ . اصبحا كخرقتين باليتين . اما « فطومة » اختك فقد
تحولت الى امرأة اخرى . . امرأة غير « فطومة » ام عيون الوساع .

هذه هي الحقيقة يا خالة . انت تعرفينها جيداً . صدقني اني قبل
ثلاثة ايام او اكثر لا ادري ! . حاولت اقناع اخي الصغير بان يأكل عندكم ،
ولكنه رفض . رغم تكراره الممل :

— عندنا خبز .

— ما عندنا . انت تعرف .

— صار لي ...

— روح عند خالتك .

— عيب .

— انت صغير لا يهم

— ما اروح .

أرايت مثل هذا من قبل ؟!

هي - اقصد خالتي - تبكي دائماً . خاصة عندما تراني مستلقيا على الارض ونظراتي عالقة بسقف الكوخ السخامي اللون . مرة قلت لها :

— خالة . عندي حكاية ،

— احكي .

لم اقل لها شيئاً . لا ادري لماذا اردت محادثتها ؟! فقط احسست بانني في حاجة لان اقول لها : انني منذ مدة وانا اشعر بثقل كبير وبخدر مخيف . خالة . حلمت اني في زورق تنقاذفه امواج البحر الصاخب . كنت اصرخ بعنف . فصريه لي . انت ملمة بمثل هذه الامور يا خالة . قبل سنين قلت لنا ان شيئاً سيحدث على هذه الارض . وان اباك سيخرج من السجن . لقد حدث هذا بالفعل . انت تعرفين اشياء كثيرة يا خالة . فسري لي هذا الحلم . ارجوك .

اردت ان اقول لها هذا . لكنني لزممت الصمت . الايام بدأت احسها
تنف . . . الحزن الغاضب اخذ يتدفق في سراييني . . . الاشياء بدأت تفقد
مكائنها عندي . . . اظن السبب هو عنف اللحظات التي اعيشها عندما تتعلق
عيناى بقرص الشمس وهو مستند على الارض عند حافة الافق . فأمد يدي
اليه بقوة وبصمت . بينما في اعماقي يغور صراخ طويل . . . طويل !
— سأنا لك يوماً .

١٩٥٧

استصدار

للمؤلف

الحزن « رواية »

E-2

صمم الغلاف
محمد سعيد الصغار

طبع الغلاف في مطبعة دار الساعة

تلفون : ٨٢٢٩٣

الـثـمـن : ١٠٠ فلساً

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 071969321

AP